

سلسله مطبوعات مكتبة الاسلام للكتاب

معقل الإنسانية

رسالة

الى ابناء البلاد العربية خاصة

بقلم

ابوآن على بنى الزوى

تطلب من

مكتبة الاسلام للكتاب

الهند

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

— ❖ معقل الانسانية ❖ —

مرح طرفك في عالم القرن السادس المسيحي ولا يفترتك
الابنية الشامخة المشيدة والملابس الفاخرة المزخرفة وقناطر
الذهب والفضة المقنطرة، فذاك ما نراه في مجموع الصور القديمة
و دارالانار الثيقة، ولكن انظر هل ترى للمرودة حياة في ناحية
من نواحي الشرق والغرب؟ احبس نفسك واستمع، هل تحس لها
عرقا ينبض وقلبا يخفق؟

ترى الحياة بجرأ يزدر فيه الحوت الكبير الحوت الصغير،
والعالم غابة بقرس فيها الاسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم
والخروف، لقد انصر الشر على الخير، والرذيلة على الفضيلة،
والاهواء على العقل، والبطن على الروح، لقد تطلوت الارض
السماء سفاهة، ونصبت المفرقدين الجبائل،

اصبحت الدنيا سوق المناداة بضائعها كل ملك ووزير و غنى
وقهين يباعون ببيع السلع فهل ترى في هذا الغمار قتي يربأ بنفسه

عن ان يباع بيع السلعة وينادى: ان هذا الجو الفسيح لا يسع لطيراني، لقد كات الحياة لانقع منى بمكان فخلق الله لى حياة ثانية فكيف ابيع روى وجوه انسانيتى بكسر من كسور هذا العالم الصغير؟

لقد صارت الشعوب والبلاد ثم القبائل والمشار ثم الاسر والبيوتات دوائر صغيرة واعقاد اصحاب الطموح والكبرياء ان يسكنوا فيها كالأقزام لا يضيقون بها ذرعا، ولا يبيعون عنها بدلا، ولا يرون فى خارجها حياة ولا يعرفون بشرية أوسع وعالماً أفسح، لقد أصبحت الحياة تعاطيا فى البيع والشراء وتسابقا فى المكيدة والخداع، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح واوعة قلب وسمو نفس،

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة وحشائش شيطانية فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية والحشرات السامة وفيها مستنقعات فيها أنواع العلق، وفى الغابة كل سبع مخيف وكل طائر جارح وفى المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالاسان ويمتص دمه، ولكن لم يكن فى هذا العالم المزدهم بالبشر من يستحق أن يسمى بشراً، أم الرجال فقد اجاؤا الى المغارات والادبار والكنائس واحتفظوا بدينهم وحياتهم او مكثوا فى تيار الحياة

يتلهون بالفلسفة ويتغنون بالشعر وليس فى المدنية رجل جد يكافح أعداء المدنية وينتصر للبشرية المظلومة،

وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها ديب الحياة، وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازاً تنزل به أوكار الطيور التى قد عششت عليها وباضت وفرخت وهى تحسب انها ميتة لاحتراك بها، وإذا ببيوت العناكب تنفتت وتتساقط، وذلك ما يعبر عنه أصحاب سير والروايات فى لغتهم بارتجاج ايوان كسرى وخمود نار المعجوس أما رائيت كيف تتناثر المباني المخصصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الارض فيضطرب بها ظهر الارض فكيف لا تنزل نظم كسرى وقصر وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبى الاعظم صلى الله عليه وسلم وطلوع فجر السعادة والعدل فى العالم،

بعث محمد بن عبد الله الهاشمى صلى الله عليه وسلم فى مكة قلب العالم المتمدن المعمور فأرسل صيحة دويت بها الغابات وجاوتها الجبال وذلك قوله « لا اله الا الله محمد رسول الله » كلام وجيز يحمل فى أنثائه عالم المعانى والحقائق، ولقد شهد التاريخ بأن أسس الحياة الكاذبة المزورة ودعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتأثر ولم تنزل بشئى مثل ما زلزلت فى هذه المرة بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة وان الذهن البشرى لم يضرب أبداً قبل هذه ضربة موجمة فتألم بها هذا الذهن البليد واستشاط غضبا وجن

جنونه وقال « أجعل الالهة الها وواحداً ان هذا لشئ عجاب »
 واعتقد قادة هذه الحياة انه امر مبين وخطه مدبرة ضد هذه الحياة
 السائدة وانه لابد من مكافحتها « وانطلق الملا منهم ان امشوا
 واصبروا على الهتكم ان هذا لشئ يراد » لقد كانت ضربة قاضية
 على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها بتأثير بها هيكل الحضارة
 والسياسة بجمع أركانها،

لقد كانت - ولا تزال - هذه الكلمة تعنى أن هذه الحياة
 ليست أجمه برية وحشية لم يعنى بها معتن بل هي حديقة منسقة
 غرسها الله تعالى وتعهده تهذيبها وإصلاحها، وأن الانسان ريحانة
 هذه الحديقة وروح الربيع وكيف تذبذب هذه الريحانة وتدوسها
 الاقدام او تخطفها الطير أو تهوى بها الريح ولم تؤد مهمتها ولم
 تحل المعمل اللائق بها؟ فتقتضى فطرته ان يعبد الله وحده وتطالبه
 نفسه السامية ان لا يقتنع بغير رضا الله، ويقضى شرفه وكرامته
 ان يجاهد في هذا السبيل ويبذل ما عنده من عقل ومواهب
 او مال ومكاسب وليس الانسان ان يتطأ من لجسد أو روح،
 أو جبل ونهر أو شجر وحجر أو ثروة مشر أو جاه وجيه او سلطان
 ملك، انه ليسمو على كل مخلوق ويتضائل أمام خالقه، ان العالم
 لم يخلق الا ليعدمه ويطعمه، ان الله سبحانه وتعالى قد أسجد
 الملائكة الذين هم حملة القوتى الكونية ليعلم الانسان أن هذا

الكون خاضع له متواضع، فيأمره وينهاه ويستخدمه لمصلحته
 الطيبة ويسخره لمآربه العادلة...، (وذلك قوله لا اله الا الله)،

ثم ان حياة الانسان هي السهم الوحيد الذي يملكه فاذا
 أصاب غرضه فياله من سهم مصيب! واذا طاش وأخطأ رعيته
 فيا رزية رايم ضيع سهمه الوحيد! وان حياته لوسيلة كل سعادة
 في الدنيا والاخرة وانها رأس بضاعة فأخلق به ان يكون ضيئنا
 بهذه الحياة شديد الاحتفاظ بها وان لا يضيعها في تجربة واختبار
 وفي مخاطرة وقمار، وان لا يخبط فيها خبط عشواء ولا يركب
 العمياء فانما هي حياته الوحيدة، وما أقبح القمار في رأس المال
 وما أشده خطرا! فينبغى ان يسير موكب للحياة بدلالة خريت
 حاذق مجرب فان المفازة موحشة وقطاع الطريق كثير وان يسير
 في ضوء النبوة والوحي فان عالم القياس والتخمين ظلام في
 ظلام ظلمات بعضها فوق بعض وان النبوة هي النور الوحيد في
 هذه الظلمات المتركمة والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره
 المبرم والنبي هو المتصل بهذا المنبع والواسطة بين الحق والخلق
 في الهداية « ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى »
 وان محمدا صلى الله عليه وسلم هو آخر المتصلين بهذا المنبع
 وخاتم الانبياء والمرسلين الذي نسخ الله به الاديان ونصبه اماما
 لكل زمان ومكان، وهو اجمعهم لصفات النبوة والكمالات

البشرية ومعاني الحسن والاحسان، وهو المثل الكامل للبشر في كل عصر ومصر، وان دينه الذي جاء به هو رسالة كل عصر ودواء داء، فلا يتم الايمان بالله ولا يمكن الوصول اليه الا بالايمان بالرسول عامة وبمحمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وذلك قوله محمد رسول الله »

وان الانسان ليحمل في رأسه طموحاً لا يشبع « وهمة في قلبه لا تقف، وروحاً في جسمه لا تنى، وقلباً في جنبه لا يطمئن فلا يروى غائته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق المتناقل وان طاعته وعصيانه لاوسع من ان يستوفي ثوابها أو عقابها في هذا العالم المحدود، فتلزم به حياة خالدة وعالم لا يعرف الثغور والاطراف ليست هذه الحياة الاقطرة من يم اذا قورنت بالحياة الاخرة وليس هذا العالم الاشبحا اذا قوبل بالعالم الاثني، وذلك هو الايمان بالبعث والحياة الاخرة الذي هو تمام الايمان، وثالث الاركان في الاديان »

لقد بلغ الذهن الانساني في القرن السادس المسيحي من اشلل الفكرى وبلادة الحس غاية عجز معها عن ان يتخطى الماديات والمحسوسات وما يتصل بالجسم والبطن وان يعتقد لانسان اختصاصا بالنبوة والوحى، لقد كانت لهم مقائيس ورثوها عن

آبائهم فاذا رأوا بدعاً من البشر او مثالا جديداً للانسانية فاصوه بمقائيسهم، لقد كانت بينهم رجال يرون انهم المنتهى فى النطقة الانسانية فاذا نبغ فيهم عبقرى او ظهر فيهم رسول قاسوه بهم، فلم أفرغوا جهدهم ونشروا كتمانة فكركهم فلم يروا الا ان محمداً صلى الله عليه وسلم اما طالب ثراء ورخاء او رائد سيادة وسلط او منتجع ترف ولهو، واذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا انهم يبعد النجعة فانه لم يجرب طموحا فوق طموح الملوك وتطاولوا اكثر من تطاول الامراء والوزراء فأرسلوا اليه عتبة بن ربيعة فكلم محمداً صلى الله عليه وسلم، وكان ما قاله تمثيلاً صحيحاً لذهن ذلك العصر وتعبيراً صادقاً عن عواطفه ونفسيته قال: «يا ابن اخي ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وان كنت انما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا تقطع أمراً دونك، وان كنت انما تريد به ملكاً ملكناك علينا »

وما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تمثيلاً صحيحاً للنبوة وعرضاً صادقاً لموقف الامة الوليد فأثبت انه لا يطمح الى ثراء ورخاء او شرف وترف، أن نفسه العالية لتسمو عن هذه الخسائس سمو السماء على الارض انه لا يطمح راحته الذاتية ورقبه الشخصى انما يقلقه مستقبل البشر انه لا يطمح

لنفسه جنة شداد بل يريد أن يعيد الانسان المنفي الى الجنة
الخالدة التي اعدت له، انه لا يسعى ليسود قبيلة أو أمة بل يريد
ان يخرج الانسان من حكم الانسان كائننا من كان ويدخله في
حكم سيده الذي هو رب السماوات والارض،

على هذا الاساس نهضت هذه الامة وبهذه الرسالة انتشرت
في العالم وان ما أجاب به رسل المسلمين في مجالس رستم
وزردجرد يمثل تمثيلاً صادقاً نروحها ونزعتها قال ربيع بن عامر:
ان الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله
وحده ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا ومن جور
الاديان الى عدل الاسلام، ولما أمكنهم ان يؤسسوا دولة
على منبهاج دينهم وأساس عقيدتهم نفذوا فعلاً ما كانوا يدعون
اليه غيرهم، فخرج الانسان من حكم الانسان الى حكم الله وعدله
ولم يكن الحكم لحزب أو عشيرة بل كان الامر والنهي لله، يقول
الخليفة الاول: « أطيعوني ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة
لي عليكم » وقال عمر لعمر بن العاص وقد ضرب ابنه رجلاً من
اهل مصر « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم »
وكان نائبهم على مملكة كبيرة كفارس يعيش في عاصمتها القديمة
أدلى فرد من أفراد الامة حتى يتوهم الغريب أنه فقير أو
حجير فيضع الحمل على رأسه فيحمله الى بيته، وكان أكبر غنى

منهم يعيش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل فيستهين
بملذات هذه الحياة الفانية ويدخر طبيباته للحياة الخالدة،

كان وجود هذه الامة في كل ناحية من نواحي العالم
رمزاً لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية وكان كل
فرد من أفراد هذه الامة يعلن للعالم وليداً وميتاً ان وراء القوى
المادية قوة سماوية و وراء الحياة الفانية حياة خالدة فاذا ولد وليد
صرخ في أذنه بهذه الحقيقة واذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة،
اذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت وغاص الناس في بحر
الحياة الى آذانهم واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية اذا
بصوت يدوي « حي على الصلاة حي على الفلاح » فينكسر طلسم
العالم المادي وتتجلى الحقيقة الروحية ويجرى الناس وراء هذا
الصوت وقد نفصوا أيديهم من أشغالهم وخرؤا أمام ربهم، واذا
ضرب الليل رواقه ومد النوم أظفابه على هذا العالم الحي الصاخب
فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب اذا بمعين الحياة
ينصب في وادي الموت كما ينبليج الصبح الصادق في الليل الفاسق
وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درساً في الحياة
والنشاط والكدح والكفاح، والشكر والعبادة، واذا اغتر أحد
بقوته وسلطانه وزها بكثرة ماله وأعوانه وقال بلسان المقال أو
بلسان الحال « أنا ربكم الاعلى » أو « ما لكم من اله غيري »

قام رجل متواضع على منصة عالية في كل بقعة من بقاع مملكته أو نفوذه ونادى « الله أكبر الله أكبر » فينادى بحكم الله في مملكته ويرغم أنف الاله الكاذب في سلطانه

إذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الارض او اجليت منها لم يصب نظام المعيشة بشل أو خلل، وظل الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الانعام وظلت رحي الحياة تدور دورها الطبيعي، ولكن روح ذلك المجتمع الانساني يفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح، كذلك كان في اسبانيا وكذلك كان في كل بقعة انسحب منها المسلمون او أجلاهم عنها اهلها، وهل اسبانيا الحاضرة الا مدينة بلا روح وحياة بلا مبدأ وأمة بغير رسالة للعالم؟!

ان المؤمن وحده هو صاحب عاطفة في هيكل العقل والمادة الذي لا يعبد فيه إلا النفس والبطن، وهل الحياة الا بالعاطفة؟ وهل الدنيا اذا ماتت العاطفة وغلب العقل وحكمت المادة الا سوق تجارة أو ميدان حرب؟ فاذا نار المؤمن للحق كسر طلاسّم العقل وفك سلاسل الكون وحطم أصنام المادة وأملى على العالم ارادة الله فاذا هو مطيع خاضع واذا هو متواضع خاشع، وقلب نيار الحياة وغير وجه التاريخ وأرغم الكون على ان يسير سيرته،

حالت دجلة في سبيل المسلمين دون المدائن وكانت السنة كثيرة المدود ودجلة تقذف بالزبد فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال ألا انى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فتدب الناس الى العبور وأذن لهم فى الاقتحام وقال : قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل، والله ليمصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهز من عدوه، ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وتلاحق الناس فى دجلة وهم يتحدثون كما يتحدثون فى البر وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطئ شيعي^(١)

نزل طارق بالاندلس والبحر وراءه والعدو أمامه والمستقبل رهيب والطريق مظلم والارض كفة حابل والعدد زهيد والمدد بعيد، فهزئ بأشباح المادة المخيفة وعاند العقل وأمر باحراق السفن التى ترجع به الى بلاده^(٢) وعزم على الفتح وأيقن بالنصر، فهزم العدو وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين

أراد عقبة بن نافع ان يتخذ مدينة فى افريقية يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد، فقصده موضع القيروان وكانت وحلة مشتبكة بها من

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٩٨ (٢) فتح الطيب ج ١ ص ١٢١

أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله وكان مسنجات الدعوة ثم نادى أيتها الحيات والسباع انا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا فانا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه، فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل أولادها وتنقل فرأه قبيل كثير من البربر فأسلموا (١)

خرج محمد بن قاسم وهو ابن سبع عشرة سنة لغزو الهند ومعه حفنة من الناس والبحار حائلة وبلاد العدو واسعة الاطراف وعة المسالك لم يجربها العرب، فهزئ بالمعوقين والمرهين، وغلب الايمان القوة وغلب الروح المادة واذا بالهند من السند الى الملتان خاضعة للمسلمين،

ان العالم كله مدينة الاوهام والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول، وعقيدة لا تتحول، وهو في يقينه في عالم الاوهام كمصباح الراهب في الغابة المظلمة ومنارة النور في بحر الظلمات والجزيرة التي يأوي اليها اليائسون والطود الذي لا ترحزه السيول ولا تزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه ولا يوافقه على ذلك أحد ولا يصدقه أحد فلا تخور عزمته ولا تلين عريكته ولا يرتاب ولا يتلدد والناس بين معارض ومنتقد ومطيع كاره او

(١) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٢٢٤

مخالف معتزل وهو لا يحفل بذلك ويمضي كاليسف حتى يهزم بيقينه الف جند من الشك وينشق سحاب الاوهام ويظهر يقينه مثل فلق الصبح

استعمل النبي صلى الله عليه وسلم اسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه الى الشام، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسر الجيش وارتدت العرب اما عاعة أو خاصة من كل قبيلة وظهر النفاق واشرايت يهود النصرانية وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبيهم وقتلهم وكثرة عدوهم فقال الناس لابي بكر ان هولاء-يعنون جيش اسامة-جند المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي ان تفرق جماعة المسلمين عنك، فقال أبو بكر والذي نفسي بيده لو ظننت ان السباع تختطفني لانفذت جيش اسامة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وان يخرج كل من هو من جيش اسامة الى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالحو حول قبائلهم وهم قليل، فاما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل اسامة عمر بن الخطاب وكان معه في جيشه الى ابي بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال ان معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة

خصاصة ويسامح مدينته وعدوه ويتنازل عن ملك واسع وعرض قريب طمعاً في الاجر ومحافظة على الكرم

تغلب ملك كافر على دولة اسلامية في بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة وخرج محمود شاه الخلجي صاحب مالوه من بلاده هارباً عنه الى كجرات فنهض السلطان مظفر الحلیم - وكان الخلجي لا يزال في حرب معه وكانا متنافسين - من بلاده بمساکره ونزل على القلعة وشرع في المحاصرة وجد في أسباب الفتح ودخل القلعة عنوة ووضع السيف فيهم وكان آخر أمرهم انهم دخلوا مساكنهم وغلقوا الابواب وأشعلوها ناراً فأحرقوا وأهليهم وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر ألفاً سوى من غلق بابيه واحترق وسوى أتباعهم، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلجي التفت اليه وهناك بالفتح ودعا بالبركة في ملكه وقال له بسم الله ادخلوها بسلام آمنين وعطف عنانه خارجاً من القلعة الى القباب، وهياً الخلجي الضيافة ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله الاشراف بالاطواع فأجاب، فلما فرغ من الضيافة دخل به في الابنية التي هي من آثار أبيه وجده فأعجب بها وترحم عليهم ثم جلسا في جانب منه وشكره الخلجي وقال الحمد لله الذي أراني بهمتك ما كنت أتمناه بأعدائي ولم يبق لي الا ان أرب في شيعي من الانبياء والاطلطان أولى بالملك

رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين ان يتخطفهم المشركون وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبابكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغه عنا واطلب اليه ان يولى أمرنا أقدم سنان أسامة، فخرج عمر بأمر أسامة الى ابي بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتني اللاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أرد قضاءً قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولم يبق في القرى غيري لانفذته، قال عمر: فان الانصار تطلب رجلاً أقدم سنان أسامة، فوثب أبو بكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر، وقال: نكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أعزله!

وسار أسامة وأوقع بقبائل من ناس قضاة التي ارتدت وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يوماً، وقبل سبعين وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لولم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه (١)

ان العالم سوق لارحمه فيها ولاشفقة ولا مسامحة فيها ولا كرم، والمؤمن وحده هو الذي يؤثر على نفسه ولو كان به

هنى وما كان له فهو لى فأستلك قبول ذلك والسلطان أن يقيم به من شاء، فالتفت السلطان اليه وقال له ان اول خطوة خطوتها الى هذه الجهة كانت لله تعالى والثانية كانت لنصرتك وقد ملتها فالله يبارك لك فيه و مينك عليه، وسأله أركان دولته ان يستأثر بدولة الخلجي فالتفت الى محمود وقال له احفظ باب القلعة برجال لا يدعو أحداً يدخلها بعد نزولى حتى من ينتسب الى وانصرف الى بلاده (١)

العالم بلاد لا يعيش فيها الا من يحمل في جنبه قلبا كأنما قد من حجر، لا يعرف الحنان والرحمة ولا يعرف معنى الحب والايثار، والمؤمن وحده هو الذي يحمل في جنبه قلبا يفيض حنانا ورحمة للبشر، ويجمع بين الرحمة والشدّة والصلابة والرفقة وشكيمة الاسد وحنان الام، تخلق بأخلاق الله فيجمع بين الرأفة والعزة والجمال والجلال وتخلق بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يغضب لنفسه حتى اذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شئ فيبينما تراه في ساحة الجهاد كأنه نار في حطب او منجل في حقل ليس له عاطفة ولا قلب اذا به تراه في الصلاة تهمل عيناه ويغلى صدره كالمرجل وتراه يرق للضعيف ويحنو على الارملة واليتيم، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل الا ان الاولى

(١) نزهة الخواطر للسيد عبد الحى الجمانى ج ٤

له سجية وطبيعة والثانية له وسيلة وذريعة فهو ينشد بلسان الحال «وانى لجلو تغتر بنى مرارة» لا يدع السماحة والكرم حتى مع العدو ولا يترك التمسك بالاخلاق العالية حتى فى ساحة القتال

هذا صلاح الدين الذى صار مثلاً فى شدته وجلادته، تستغيث به امرأة اختطف ولدها فهى تبكى بكاء التكللى، فيرق لها بطل حطين ويطوف بها على القبائل والمنازل حتى تعرف ابنها وتضمه الى صدرها، (١) ويهدى الى قرنه واعدى عدوه فى العالم وتشرذ الثلج والفواكه فى مرضه (٢)

الناس من خوف الموت فى الموت وأشد من الموت يمدون هذه الحياة رأس مالهم ومنتهم آمالهم فليس من الغريب ان يؤد أحدهم لو يعمر ألف سنة، حتى اذا جاءه الموت خرج من الدنيا حزينا متلهفا على ما يفارقه كارها مستبشعا لما يستقبله

اما المؤمن فهو دائم الحنين الى ربه، شديد الشوق الى جنته لا يبالي أوقع عليه الموت أم على الموت وقع، يستقبل الموت باسم الثغر جذل القلب فرحاً مستبشراً كأنما هو خارج من السجن أو عائد الى الوطن

(١) (٢) الفتوح القسى فى الفتوح القدسى لعباد الدين الكاتب

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة يوم بئر معونة
فانفذه قال عامر: فزت ورب الكعبة (١) ولما ضرب ابن ملجم
على بن أبي طالب: قال فزت ورب الكعبة (٢)

قام أبو عبيدة في الناس في طاعون عمواس، فقال ايها
الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين
قبلكم وان ابا عبيدة سأل الله ان يقسم له منه حظه فطعن فمات،
واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيبا بعده فقال ايها
الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين
قبلكم وان معاذاً يسأل الله ان يقسم لآل معاذ حظهم فطعن
ابنه عبد الرحمن فمات ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته
فلقد كان يقبلها ثم يقول ما أحب ان لي بها فيك شيئاً من
الدين (٣)

وحضر بلالا الوفاة فقالت امرأته واحزناء قال بل واطرباه،
غدأ نلقى الاحبة: محمداً وحزبه (٤)، وكذلك روى عن عمار انه
كان يقول ذلك عند وفاته (٥)

(١) طبقات ابن سعد (٢) كتاب التفتيح لعماد بن محمد بن الفضل (٣)

الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢١٦ (٤) انزالي في الاحياء عن ابن ابي الدنيا

(٥) الطبراني

المؤمن هو الذي يستطيع أن يفضل الفقير على الغني
والآخرة على الدنيا والنسيئة على النقد الحاضر والغيب على الشهود
والدين على الحياة في كل دور من أدوار التاريخ مهما بلغت
المادية أوجها،

ليس لقطر من الاقطار أن يمن على الاسلام بأنه فسح
له في أرضه، وانما الفضل والمنة للاسلام على كل قطر فقد ألقى
عليه درساً في التوحيد الذي لا يشوبه شرك، وحب الانسانية العامة
واحترامها، ووسع افق خياله فصار يرى للحياة معنى غير معنى
والانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم وعالمها أوسع من
وكره الذي يعيش فيه، انه وضع عن كل أمة اسرها والاغلال التي
كانت عليها وانقذها من العنصرية والجنسية والوطنية وعبادة المال
والبيوتات والاشجار والاحجار والحيوانات والانهار والارواح
والاجرام السماوية ومن الرهينة الفاتكة بالمدينة والعزبة القاطعة
للنسل، هو الذي كسر طلسم الاوهام التي مضى عليها قرون وخرج
عليها أجيال، أطلق العقل من أسساره، ورفع الحجر عن
العلم ونسخ احتكار البيوتات للدين ورسم في الذهن منزلة العمل
الفردى والسعى الشخصي واستقلال كل انسان بعمله ومسئوليته
ومن الذي يستطيع ان ينكر أن الفضل في تقدم العالم وقطع
مراحل المدنية والعلم انما يعود الى الاسلام؟ ومن الذي يجهل

اليوم أن الفضل في تقدم أوربا وتخلصها من رق الإحبار والرهبان وسلاسل الكنيسة والحكم المطلق، وفي العكوف على العلوم الطبيعية والتجريبية، والخروج من الهمجية إلى الحضارة إنما يعود إلى الاندلس الإسلامية التي ظلت قرناً طويلاً مشعل الثقافة ومنبع العلم ومدرسة الفن والتهديب في العصور المظلمة! إن كلمات العدل والمساواة والإنسانية والعالمية منتشرة ذائعة اليوم في كل ناحية من نواحي الهند وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبائها وكتابها، وخضفة على لسان كل خطيب ومتكلم، ومن ذا يكابر في أن الإسلام هو الذي عرّف هذه الكلمات إلى أهل هذه البلاد وسعى في واجها وذبوعها في بلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها،

إن المسلمين ليسوا تسلاً أو شعباً فحسب، وليس الإسلام عادات وتقاليد ترثها يتوارثه ولد عن أبيه، إنه دعوة ورسالة وحياة وعقيدة تقتض بالطلع أن يكون نظر المسلم أوسع من الهاديات والمحسوسات ومن عالم النفوس والمطون ووطنه أوسع من المنطقة الصغيرة التي ولد فيها، وأن يكون قلبه عامراً بحب كل إنسان كائننا من كان، وأن لا تكون الأوطان والأنساب هائقاً في سبيل حبه وعطفه وأن لا يكون سعيه منحصراً في نطاق الحياة الضيق، ويلزم لكل من يدين بهذا الدين أن يحمل

للبشرية رسالة المروح والقلب والعاطفة والسياسة والاجتماع، ويملك قوة أخلاقية تراقبها في النور والظلام والوحدة والاجتماع والعجز والمقدرة، عنده أساس متين من العلم وبينات ومحكمات في المدنية، وحياء نبي كان ولا يزال المثل الكامل للبشر في مختلف ظروفه وأحواله ومختلف عصوره وأجياله، وكل أمة كان هذا شأنها فهي حاجة كل عصر وقطر ومقرع الإنسانية في كل ساعة عصبية وكما حلت بها أزمة عجزت عن حلها العقول البشرية والنظم الاجتماعية والسياسية.

إذا حجب الليل النهار، وهجمت جنود الهوى من كل جانب وهزمت أفضيلة والاخلاق، وإذا أصبح الإنسان ينحدر أخاه لأجل فلس أو لأجل قرص، وإذا أصبحت الشعوب الكبيرة تزدد الشعوب الصغيرة في سبيل الجشع أو الخيلاء، وإذا صار وثن المال يعبد على قارعة الطريق، وإذا ضحى بألوف من الناس على أنصاب الجحشية والوطنية، وإذا حال الإنسان بين الإنسان ورزقه، إذا التهمت نار الشهوات وانطفأ نور القلب، إذا نسى الإنسان الموت وعكف على الحياة يعيدها، إذا غلا الجهاد والمعادن ورخص الإنسان في سوق العالم فصارت المدن العامرة تسوى بها الأرض وألوف من البشر يقتاون في دقائق وثوان بالقنبلة الذرية، إذا تقلبت الأمم الأوروبية على العالم وجعلته

بيت المقامرين أو سوق الجزارين وعبثت بالانسانية عبث الوليد
بجانب القرطاس وتلاعبت بالامم كالكرى، اذا ظهر الفساد فى البر
والبحر بما كسبت ايدى الناس، هنالك يستصرخ هذا الكون
المؤمن ويستغيث به وهنالك تناديه الانسانية باسم الاسلام
الذى طلع كالصبح الصادق فى ظلام الليل العالك وباسم محمد
صلى الله عليه وسلم الذى اغاث الله به الانسانية فى احتضارها
وانتجارها وحفظ به مهجة الانسانية وادال به من الجهلية
الجهلاء،

فهل يسمع المؤمن فى جزيرة العرب التى اشرقت منها
شمس الاسلام وفى حواضر البلاد العربية فى آسيا وافريقية وفى
الاقطار الاسلامية عامة سراج الانسانية وعويلها فيوب من نومه
العميق الطويل الذى مله العالم وبشب كالاسد وبنقض كالصقر
على أعداء الانسانية، انه بذلك لجدير وبحول الله على ذلك
قدير، فهو معقل الانسانية ومنتهى الرجاء وأمين الله فى
الارض وخليفة الانبياء

يدعون سياراً اذا احمر القنا
ولكل يوم كربة سيار

